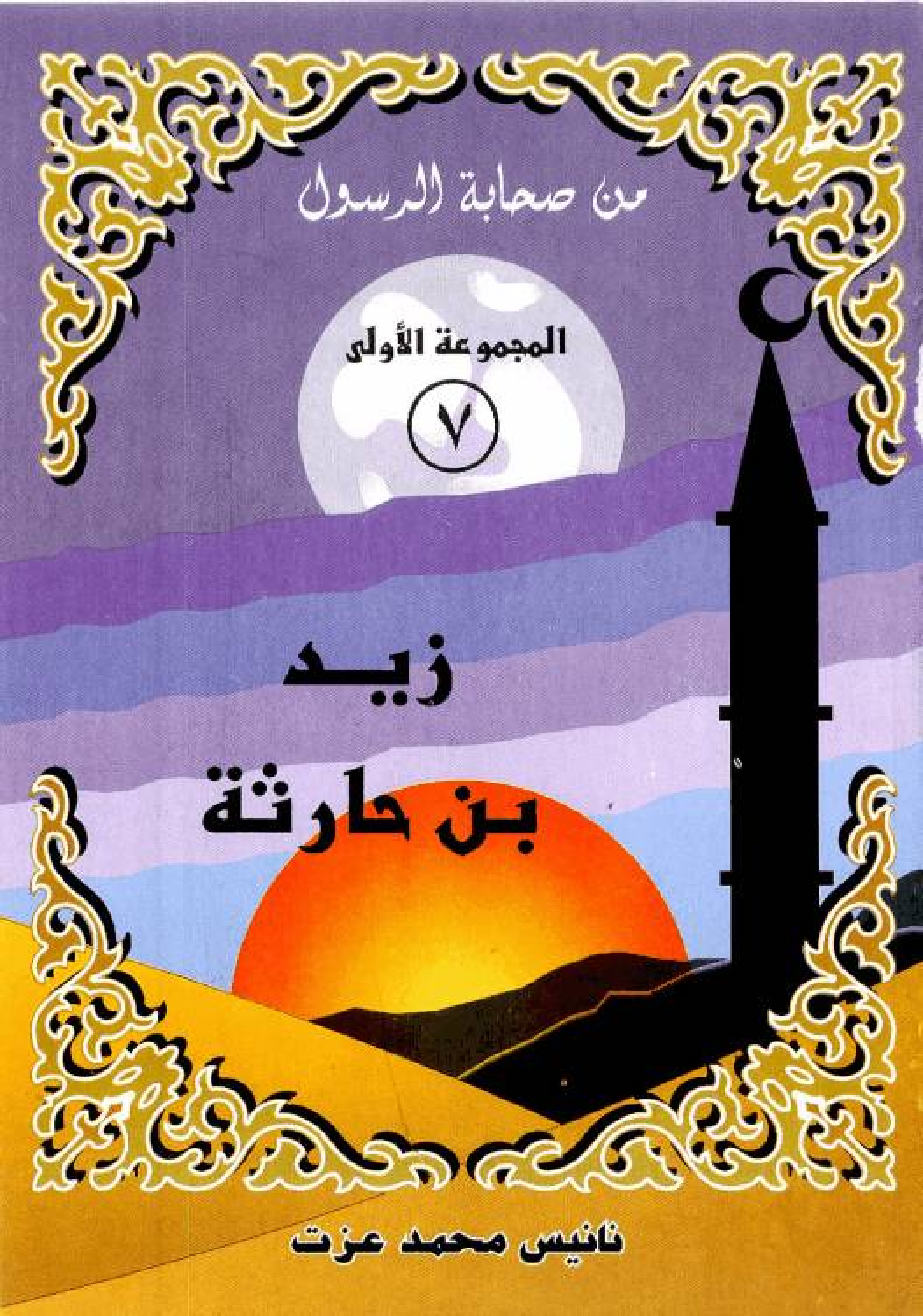

من صحابة الرسول
المجموعة الأولى
٧
زيد
بن حارثة
نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ٧

زيد بن حارثة

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠

زيد بن حارثة

أقبلَتْ إجـازةُ نِصفِ السَّنَة ، فسارَعَ عُمَرُ لزِيارَةِ جَدِّهِ فـي مَزرَعَتِه ، فهـو يُحـبُّ أن يَلعبَ في الحُقـولِ الخَضراءِ الواسِعَة ، ويَشتاقُ قبلَ كُـلِّ شَيءٍ إلى رُكـوبِ الحِمار ، ومُلاعَبَةِ الخِرافِ والماعِز .

فاسْتَقبلَه جَدُّه بحفاوَة ، وقالَ له : أهلاً يا عُمَر ، قد أوْحَشْتَنا كَثيرًا منذُ سافَرتَ في آخرِ الصَّيْف .

قال عُمَر : أهلاً يا جدّو! اِطمَئن ، فسأَقضي عِندَكُم أُسْبوعَيِ الإجازَةِ كـامِلَيْن ، فكـمْ أشْتاقُ لأَكـلِ الفَطـيرِ والعَسَل ، ولِرُكوبِ الحِمارِ الصَّغير .. علَى فِكْرَة ، أيـنَ هو الآن ؟ فأنا أُريدُ أن أتنزَّهَ عَليهِ في الحَقْل .

قالَ جَدُّه : اصْبِر يا عُمَـر ، فـالوَقتُ أمامَنـا مُتَّسِـع ، تَعالَ الآنَ نَمرُّ علـى المَزْرَعَـة ، بَينَمـا تُعِــدُّ لـك الخـادِمُ

« خَضْرَةُ » الفَطيرَ والعَسَل .

خرجَ عُمَرُ يَسيرُ مع جَدِّه ، وشاهَدا الزِّراعاتِ المُختلِفَة ، فَهذا قَمحٌ ذَهَبيُّ اللّون ، وهذا قُطنٌ ناصِعُ البَياض . وشاهَدا الفَلاّحاتِ وهنَّ يَحلِبْنَ الأَبْقار ، والأَطْفالَ وهُم يَلعَبونَ ويَمرَحون .

وعِند عُشَّةِ الدّواجِن ، اسْتَوقَفَ عُمَرَ مَشهَدٌ عَجيب ، اسْتَغرَبَ له كَثيرا . فسأَلَ جَدَّه : لِماذا تَمشى هذه الكَتاكيتُ وَراءَ هَذِه البَطَّةِ يا جَدّى ؟ فهى لَيسَتْ أُمَّها .

ضَحِكَ جَدُّه وقال : ولكنّها أُمُّها فِعلاً يا عُمَر .

اسْتَغرَبَ عُمَرُ وسَأَلَ جَدَّه : ولكنْ كَيْف ؟

قالَ جَدُّه : إنَّ لذلِكَ قِصَّةً طَريفَة ، فقدْ باضَتِ الدَّجاجَةُ ورَفضَتْ أن تَحضِنَ بَيضَها ، فجاءَتِ البَطَّةُ

ورَقـدَتْ عَليـه . فلَمّـا فَقـسَ البَيـضُ وخَرجَـتْ منـه الكَتاكيت ، أحبَّتِ الكَتاكيتُ البَطّةَ وتَبِعَتها .

قالَ عُمَر : وهل هَذا مُمكِن ؟ كيفَ تَترُكُ الكَتاكيتُ أمَّها ، وتَتعلّقُ بأُخرَى ؟

قالَ جَدُّه : الصِّغارُ يا عُمَرُ تَشـعُرُ بـالحُبِّ والحَنـان ، وقدْ شَعرَتِ الكَتاكيتُ بعَطـفِ البَطّـةِ وحُنُوِّهـا عَلَيْهـا .

وقد حَدثَ شَيءٌ مِثلَ هذا فَلا تَستَغْرِبْ ، أيّـامَ الرَّسـولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم .

سأَلَ عُمَر : أَحدَثَ ذلكَ حَقًّا يا جَدّى ؟

قالَ جَدُّه : نَعَم ، أتعلَمُ يا عُمَرُ مَن هو زَيدُ بنُ حارِثَة ؟

قالَ عُمَر : أَعلَم أنّهُ مَوْلَى الرَّسولِ صلّـى اللّـهُ عَليْـهِ وسَلّم ، أى عَبدُهُ المُعتَق ، وقد أَهدَتهُ إلَيْهِ زَوجَتُهُ السَّيِّدَةُ خَديجَة ، عِندَ زَواجِهِما .

قالَ جَدُّه : هَذا صَحيحٌ يا عُمَـر . تعـالَ الآنَ لِتـأْكُلَ الفَطيرَ والعَسَل ، وسَوفَ أَقـصُّ عَليـكَ قِصَّـةَ زَيـدِ بـنِ حارِثَةَ بَعد أن تَفرُغَ منَ الأَكل .

* * *

وفي البَيتِ حَكَى الجَدُّ القِصَّةَ لِعُمَر ، قال : سافَرَ زَيدٌ مع أُمِّهِ لِزيارَةِ بَنى مَعْنٍ قَومِ أُمِّـه ، وكـانَ عُمْرُهُ إذ ذاكَ ثَمانى سَنَوات ، وكـانَ زيـدٌ قُـرَّةَ عَينِ أَبيـهِ يُحِبُّـهُ حُبًّـا كَثيرا، فَحزِنَ لابْتِعادِهِ عَنْـه ، ولكِنْـهُ سَرْعانَ مـا طَمـأَنَ نَفْسَهُ بأنّها مُجرَّدُ زِيارَة ، ويَعودُ إلَيْهِ بَعدَها فِلذَةُ كَبِدِه . ولكِنْ حدَثَ ما لم يَكنْ فى الحُسبان ، وأَغـارتْ إحْـدَى القَبائلِ على الحَيِّ الّـذى نَـزلَ فيـه زَيْدٌ وأُمُّـه ، فأَسَـروا زَيْدًا وباعوهُ عَبدًا رَقيقًا فى سوقِ الرَّقيقِ بعُكاظ .

فلمّا عَلمَ ذلك حارِثَةُ ـ أبو زَيْد ـ حَزِنَ حُزنًا شَديدًا

لِفقدِ ابْنِـهِ الحَبيب ، وأصبَحَ لا هـمَّ لـه إلاّ التّنقُّـلُ بـينَ الدِّيارِ فى القَبائلِ المُختَلِفَة ، يَبحثُ عن ابْنِهِ زَيْد .

وقـدِ اشْتَرى زَيْدًا مِن سوقِ عُكاظ ، أحَدُ سادَةِ قُرَيْشٍ الأثرِياء ، هـو حَكيـمُ بـنُ حَزامِ بنِ خُوَيْلِـد .. اشْتَراهُ بأَربَعِمائـةِ دِرْهَـم . ثـمَّ أهْدَى حَكيـمُ بـنُ حَزامٍ الغُلامَ الصَّغيرَ إلَى عَمَّتِهِ السَّيِّدَةِ خَديجَةَ بنتِ خُوَيْلِد .

قالَ عُمرُ مُستَنكِرا : ما هـذا العَبَـث ؟ كيـفَ يَكـونُ الإنْسانُ بِضاعَةً تُباعُ وتُشتَرَى ، أو تُهدَى من مـالِكٍ إلى مالِكٍ آخَر ؟

قالَ جَدُّه : كانَ هذا هُـوَ العُرْفَ السّائدَ حينَـذاك ، وعِندما جاءَ الإسْلامُ أبطَـلَ الـرِّقَّ أي العُبودِيَّـة ، وأعـادَ للإنْسانِ كَرامَتَه . وكانتْ خَديجَـةُ بِنتُ خُوَيْلِـد ، عَمَّـةُ حَكيمِ بـنِ حَزام ، سَيِّدَةً غَنيَّـةً تَملِـكُ أمْـوالاً كَثيرَة ،

وتِجارَةً واسِعَة . وقد رافَقَ عَبدُها زَيْدُ بنُ حارِثَة ، مُحمَّدَ بنَ عبدِ اللّهِ وهو في رَيْعانِ شَبابِه ، في سَفرَةٍ تِجارِيَّةٍ لِحسابِ السَّيِّدةِ خَديجَة ، فلمَسَ في مُحمَّدٍ الصِّدقَ والأمانَة ، والأخْلاقَ الكَريمَة ، والصِّفاتِ الحَميدَة ، فلمّا رَجعَا منْ سَفرَتِهِما، نَقلَ ذلِكَ كُلَّهُ إلَى سَيِّدَتِه ، مِمّا مَهَّدَ لزَواجِها مُحمَّدا .

وعِندَما تَزوَّجَتِ السَّيِّدَةُ خَديجَةُ رَضِيَ اللّهُ عَنْها مُحمَّدَ ابنَ عَبدِ اللّه ، أَهدَتْ إليهِ زَيْدًا كَمولًى لَه ، فتقبَّلَه مِنْها راضِيًا مُمْتَنّا ، وكانَ كَثيرَ العَطفِ عَلَيْه والرِّعايَةِ له .

وحَدثَ بعدَ ذلِكَ أنْ رأى بَعضُ جيرانِ حارِثَة — أبي زَيْد — زَيْدًا في مَكّةَ فتعَرَّفوا عَليْه ، وأَخْبَروه أنَّ أباهُ يَبحَثُ عَنه ، وأنَّهُ في شَوقٍ شَديدٍ إليه .

فقالَ لهم زَيْد : أَخبِروا أَبي أَنّي هُنا معَ أَكْرَمِ أَبٍ لي .

وعِندَما عَلِمَ حارِثَةُ أنَّ ابْنَهُ مَوجودٌ فى مَكّة ، كادَ يَطيرُ مِنَ الفَرَح ، وأَسرَعَ هو وأَخٌ لَهُ إلى مكّة ، حَيثُ يَلْتَقى بابْنِهِ الحَبيب .

وفى مكّةَ قابَل حَارِثٌ مُحمَّدا ، وطلبَ مِنه أن يَرُدَّ إلَيْهِ ابْنَه ، مُقابِلَ ما يَطلُبُه من فِداء .

ولكِنَّ مُحمَّدًا الأَمينَ قالَ لَهما : خَيِّرا زَيْدًا فإنْ اخْتارَكُما ، فلْيَذهَب مَعَكُما بِلا فِداء ، وإن اخْتارَنى فأَهْلاً به .

واخْتارَ زَيدٌ أن يَبقَى مع مُحمَّد .

تَساءَل عُمَر : أَرَفَضَ أن يَذهَبَ مع أَبيه ، الّذى تَعذَّبَ كَثيرًا فى البَحثِ عَنه ؟

قالَ جَدُّه : وَجَدَ زَيدٌ فى مُحمَّدِ بنِ عَبدِ اللّهِ نِعمَ الأَب ، من حُسنِ مُعامَلةٍ إلى كَرَمِ خُلُق . وعادَ حارِثَةُ إلى قَومِهِ وهو راضِىَ النَّفسِ مُطمئِنَّ الفُؤاد ، فزَيدٌ فى

كَنَفِ (رِعايَةِ) أفضَلِ والدٍ لابْنِه ، كَنَفِ مُحمَّدٍ الصّادِقِ الأَمين .

واصْطَحبَ مُحمَّدٌ زَيْدًا إلى سوقِ مَكّة ، وأَشهدَ أهلَ مَكّةَ جَميعا ، أنّ زَيْدًا ابْنُه ، وله الحقُّ كُلُّ الحَقِّ أن يَرِثَه ، ومُنذُ ذلكَ الوَقتِ أصْبَحَ زَيدٌ يُعرَفُ لَدَى الجَميعِ باسْمِه زَيدِ بنِ مُحمَّد .

* * *

وبدأَ الوَحيُ يَتَنزَّلُ علَى مُحمَّدٍ صَلّى اللّهُ عليهِ وسَلّم ، فَراح يَدْعو قَومَهُ إلى نَبذِ عِبادَةِ الأَصْنام ، وعِبادَةِ اللّهِ وَحدَه ، فلقِيَ هو وصَحبُه أشَدَّ ألْوانِ الأَذَى والعَذاب .

ونَزلَتِ الآياتُ تُحرِّمُ التّبَنّي ، فرجَعَ إلى زَيدٍ اسْمُهُ الأَوَّل « زَيدُ بنُ حارِثَة » . ولم يَمنَعْ ذلك الرَّسولَ صَلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، منَ العَطفِ علَى زَيدٍ ورِعايَتِه ،

فقد كانَ يُحبُّهُ حُبًّا كثيرا ، لوَفائهِ وصِدقِهِ وإخْلاصِهِ في خِدمَتِه ، حتّى كان يُسمّيهِ « زَيدَ الحِبّ » .

وهاجَرَ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّمَ إلَى المَدينَة ، وانْتَشَر الإسْلامُ شَرْقًا وغَرْبا ، وأَرسَلَ الرَّسولُ صَلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّمَ الغَزَواتِ يَلي بَعضُها بَعْضًا ، وكانَتِ الإمارَةُ في تِلكَ الغَزَواتِ جَميعًا « لزَيدِ الحِبِّ » دائما .

وكانتْ السَّيِّدةُ عائشة ـ رضِيَ اللّهُ عَنها ـ تَقول : ما أَرسَلَ النّبيُّ غزوَةً إلاّ وأمَّرَ عَليها زَيْدا ، ولو كانَ زَيدٌ حَيًّا عِندَ مَوتِ الرَّسول ، لاسْتَخلَفَهُ من بَعدِه .

وقد شَهِدَ زَيدٌ غَزَواتِ بَدرٍ وأُحَدٍ والخَنْدقِ والحُدَيبيَة ، واسْتَخْلَفَهُ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم عَلَى المَدينَةِ حينَ خَرجَ إلَى « المُرَيْسع » ، وكانَ لزَيدٍ الشَّرَفُ الأكبَرُ أنّهُ الوَحيدُ من صَحابَةِ الرَّسولِ صَلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، الّذى ذُكِرَ اسْمُهُ في القُرآن .

وجاءَتِ السَّنَةُ الثّامِنَةُ مِنَ الهجْـرَةِ ، وحـانَتِ السّـاعَةُ الّتى يَلقَى فيها زَيْدٌ رَبَّه . فخرَجَ فى جَيْـشٍ عِدَّتُـهُ ثلاثَـةُ آلافِ مُقاتِلٍ لحَربِ الرّومِ فـى غَـزوَةِ مُؤْتَـه ، وقـد ولاّهُ الرَّسولُ أميرا علَى الجَيْش ، فإنْ قُتِلَ يتولّى الجَيشَ بَعْـدَهُ جَعفَرُ بنُ أَبى طالِب ، فإنْ قُتِلَ جَعفرٌ يَتولّى الجَيشَ عَبْـدُ اللّهِ بنُ رَواحَة .

وعلِـمَ الـرّومُ بِخُـروجِ المُسْلِمينَ إلَيهِـم ، فَتَجهَّـزوا بجَيشٍ جرّارٍ من مِائَةِ أَلـفِ مُقـاتِل ، وانْضَـمَّ إلَيهِـم مِائَـةُ أَلْفٍ آخَـرونَ مـن مُشـرِكى العَرَب . وفكّـرَ المُسلِمونَ فـى إخْبارِ الرَّسولِ صَلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّمَ بأَمْرِ عَدُوِّهِـم وعَـدَدِه ، ولكِنَّ عَبدَ اللّهِ بنَ رَواحَةَ قالَ لَهم بإيمانِهِ العَميق :

ـ واللّهِ يا قَومُ إنّا لا نُقاتِلُ بعَدَدٍ ولا قُوَّةٍ ولا كَـثْرَة ، وإنّما نُقاتِلُ بِهَـذا الدّيـن ، فـانطَلِقوا فإنّمـا هِـى إحْـدَى الحُسْنَيَيْن ، إمّا ظُهورٌ وإمّا شَهادَة .

قالَ عُمرُ مُتعَجِّبـا : ثَلاثَـةُ آلافٍ فَقَـط ، أمـامَ مِـائَتى أَلف : إنَّها واللّهِ مُهمَّةٌ فى غايَةِ الصُّعوبَة .

قالَ جَدُّه : كانَت حَربًا ضارِيَة ، ليسَ فيها تَكافُؤٌ في العَدَدِ أو العَتاد ، ولكِنَّ الصَّحابَةَ قـاتَلوا بإيمـانٍ راسِـخ ، وعَزيمَـةٍ جَبّـارَة ، قِتـالاً أذْهَـلَ الـرّومَ أَنفُسَـــهُم ، ومَـلأَ قُلوبَهُم رُعْبًا مِن هؤلاءِ الثّلاثَةِ الآلاف ، الّذيـن صَمَـدوا أَمامَ جَيشِهِم البالِغِ مِائَتى ألْفِ مُقاتِل ، علَـى الرَّغـمِ من سُقوطِ قُوّادِهِم الواحِدِ تِلْوَ الآخَر .

ولقِيَ زَيدٌ رَبَّه ، وفي جَسَدِهِ أكـثَرُ مِـن مِائَـةِ جُـرح ، وتَبِعَهُ جَعفَرٌ ثُمَّ عَبدُ اللّهِ بنُ رَواحَة .

وفى المَدينَةِ نَعَى رَسولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَليـهِ وسَلَّم ، شُهَداءَ المَعرَكَة ، كأنّما كانَ يَراهُـم رأْىَ العَيـن ، قـال : (اسْتَغفِروا لِزَيْد ، لقد حَملَ الرّايَةَ فَقاتَلَ بِها حتّـى مـاتَ شَهيدا ، ودَخلَ الجَنّةَ وهو يَسْعى) .

سألَ عُمَرُ جَدَّه : وكيفَ انْتَهتِ المَعرَكَةُ يا جَدّى ؟

قالَ جَدُّه : اسْتطاعَ خالِدُ بنُ الوَليد ـ سَيفُ اللّهِ المَسْلول ـ أن يَخرُجَ بالجَيشِ منَ المَعرَكةِ بأقلِّ قدرٍ منَ الخَسائر ، وعادَ بهِ إلى المَدينَة .

وحَزِنَ النّبيُّ صلّى اللّهُ عليهِ وسَلّمَ حُزنًا عَظيمًا لِمَوتِ القُوّادِ الثّلاثَة ، وخَرجَ لِتعزِيَةِ أهْلِهِم . وعِندَما كانَ في بَيتِ زَيْدٍ لاذَت به ابْنَةُ زَيدٍ الصَّغيرَةُ وهى تَبكى ، فبَكى صَلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّمَ حتّى انْتَحب وعلا صوتُهُ بالبكاء .

فقالَ له سَعدُ بنُ عِبادَة : ما هذا يا رَسولَ اللّه ؟

قالَ : هذا بُكاءُ الحَبيبِ علَى حَبيبه .

قالَ عُمَر : يا لَها من قِصَّةٍ رائِعَة ، تَدلُّ علَى شَجاعَةِ أَصْحابِ الرَّسولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، وبخاصَّةٍ زَيد ، الّذى أَظهَر وَلاءً وحُبًّا ووَفاءً لِلرَّسول ، وأَظهرَ شَجاعَةً

عَظيمةً في جَميعِ غزَواتِه ، لا سيَّما في غَزوَةِ مُؤْتَة .

قالَ جَدُّه : أفهِمتَ الآنَ يا عَمر ، مَوقِفَ الكَتاكيتِ والبَطَّة ؟

قالَ عُمَر : نَعم ، وفَهمتُ كذلِك مَوقِفَ زَيد ، فقد فَضَّلَ الحَياةَ في كَنَفِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم ، أيْ في حِمايَتِهِ ورَحمَتِه . وكانَ اختِيارُهُ مُوفَّقا ، فنِعمَتِ الحَياةُ في ظِلِّ أفضَلِ مُعلِّمٍ في مَدرَسةِ الإسْلام ، الَّذي هو القُدوَةُ والمَثَلُ الأَعلَى لكلِّ المُسلِمين .

وابتسمَ عُمَرُ وأكْمَلَ حَديثَه : واعْلَم يا جَدّي أنّي كذَلِكَ أُحِبُّك ، وأُحِبُّ أن أقْضِيَ معكَ أطولَ مُدَّةٍ مُمكِنَة .

فاحْتَضنَهُ جَدُّهُ في حُبٍّ وحَنان ، وقال : وأَنا أَيْضًا أُحِبُّك ، وأُحبُّ أن تكونَ مَعِي دائِما . والآنَ هيا لنركبَ الحِمار .

يا مَبروك . أَحضِرِ الحِمارَ الصَّغيرَ لعُمَرَ .